الحلقة (٢١)

أهل السنة كلهم من أهل المذاهب الأربعة وغيرهم من السلف والخلف متفقون على أن القرآن كلام الله غير مخلوق

➔ **مسألة:** ولكن بعد ذلك تنازع المتأخرون في أن كلام الله هل هو معنى واحد قائم بالذات؟ أو أنه حروف وأصوات تكلم الله بها بعد أن لم يكن متكلما؟ أو أنه لم يزل متكلما إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء وأن نوع الكلام قديم؟.

قد يطلق بعض المعتزلة على القرآن أنه غير مخلوق، ومرادهم: "**أنه غير مختلق مفترى مكذوب**"، بل هو حق وصدق، غير مخلوق أي غير مفترى، ولا ريب أن هذا المعنى منتفٍ باتفاق المسلمين، كل المسلمون يعلمون أن القرآن صدق وحق وعدل وأنه غير مفترى وغير مخلوق.

والنزاع بين أهل القبلة إنما هو في كونه مخلوقا خلقه الله، أو هو كلامه الذي تكلم به وقام بذاته، لا كونه أنه مكذوب ومفترى، فهذا لا ينازع مسلم في بطلانه.

ولا شك أن مشايخ المعتزلة وغيرهم من أهل البدع معترفون بأن اعتقادهم في التوحيد والصفات والقدر لم يتلقوه لا عن كتاب ولا عن سنة ولا عن أئمة الصحابة رضي الله عنهم والتابعين لهم بإحسان، وإنما يزعمون أن العقل دلهم عليه، وإنما يزعمون أنهم تلقوا من الأئمة الشرائع.

ولو تُرك الناس على فطرهم السليمة، وعقولهم المستقيمة لم يكن بينهم نزاع، ولكن ألقى الشيطان إلى بعض الناس أغلوطة من أغاليطه، فرّق بها بينهم {وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ}.

والذي يدل عليه كلام الإمام الطحاوي رحمه الله أنه تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء كيف شاء، وأن نوع الكلام قديم، وكذلك ظاهر كلام الإمام أبي حنيفة رحمه الله في الفقه الأكبر فإنه قال: "والقرآن كلام الله في المصاحف مكتوب، وفي القلوب محفوظ، وعلى الألسن مقروء، وعلى النبي صلى الله عليه وسلم منزل، ولفظنا بالقرآن مخلوق، وكتابتنا له مخلوقة، وقراءتنا له مخلوقة، والقرآن غير مخلوق، وما ذكره الله في القرآن حكاية عن موسى وغيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وعن فرعون، وعن إبليس، فإن ذلك كله كلام الله إخبار عنهم، كلام الله غير مخلوق، وكلام موسى وغيره من المخلوقين مخلوق، والقرآن كلام الله لا كلامهم، وسمع موسى عليه السلام كلام الله تعالى، فلما كلم موسى كلمه بكلامه الذي هو من صفاته لم يزل، وصفاته كلها خلاف صفات المخلوقين، يعلم لا كعلمنا، ويقدر لا كقدرتنا، ويرى لا كرؤيتنا، ويتكلم لا ككلامنا" انتهى كلام أبي حنيفة من كتابه الفقه الأكبر.

فقوله "**ولما كلم موسى كلمه بكلامه الذي هو له من صفاته**" يُعلم منه أنه حين جاء كلمه، لا أنه لم يزل ولا يزال أزلا وأبدا يقول يا موسى كما يفهم ذلك من قوله تعالى {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ}، ففهم منه الرد على من يقول من أصحابه على إنه معنى واحدا قائما بالنفس لا يتصور أن يسمع،

وإنما يخلق الله الصوت في الهواء كما قال أبو منصور الماتريدي وغيره.

قول أبو حنيفة "**الذي هو من صفاته لم يزل**" **رد على من يقول إنه حدث له وصف الكلام بعد أن لم يكن متكلما**، وبالجملة فكل ما تحتج به المعتزلة، مما يدل على أنه كلام متعلق بمشيئته وقدرته وأنه يتكلم إذا شاء فهو حق يجب قبوله، وما يقول به من يقول إن كلام الله قائم بذاته، وإنه صفة له، والصفة لا تقوم إلا بالموصوف[1]، فهو حق يجب قبوله والقول به، فيجب الأخذ بما في قول كل من الطائفتين من الصواب، والعدول عما يرده الشرع والعقل من قول كل منهما.

فإذا قالوا لنا: فهذا يلزم أن تكون الحوادث قامت به أي قامت بالله عز وجل، قلنا هذا القول مجمل، وكما هي عقيدة أهل السنة والجماعة ومنهج أهل السنة والجماعة في أنهم يتعاملون مثلاً مع هذه الألفاظ المحدثة بأنهم يستوقفون من يستعمل هذه الألفاظ، ويسألون عن مراده منها، فإن كانت توافق الشرع أمضوها، وإن خالفته ردوها على قائلها.

إذا قال المعتزلة ومن نحا نحوهم يلزم من إثبات صفة الكلام لله سبحانه وتعالى أن تكون الحوادث قامت به.

نقول لهم : هذا القول مجمل، ومن أنكر قبلكم قيام الحوادث بهذا المعنى به سبحانه وتعالى من الأئمة، ونصوص القرآن والسنة تتضمن ذلك، ونصوص الأئمة أيضا مع صريح العقل، ولا شك أن الرسل الذين خاطبوا الناس وأخبروهم أن الله قال ونادى وناجى ويقول لم يفهموهم أن هذه مخلوقات منفصلة عنه، هذا أمر متعين ومستقر ومتفق عليه، أن الرسل الذين خاطبوا الناس وأخبروهم أن الله قال ونادى وناجى ويقول لم يُفهموهم أن هذه مخلوقات منفصلة، بل الذي أفهموهم إياه أن الله نفسه هو الذي تكلم، والكلام قائم به لا بغيره، وأنه هو الذي تكلم به وقاله، كما قالت عائشة رضي الله عنها وعن أبيها في حديث الإفك "ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيّ بوحي يتلى" ولو كان المراد من ذلك كله خلاف مفهومه، لوجب بيانه، إذ تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز، ولا يعرض في لغة ولا في عقل قائلٌ متكلمٌ لا يقوم به القول والكلام وإنما قام الكلام بغيره، وإن زعموا أنهم فروا من ذلك حذرا من التشبيه فلا يثبت صفةً غيره!! فإنهم إذا قالوا يعلم لا كعلمنا قلنا، ويتكلم لا كتكلمنا، وكذلك سائر صفات الباري جل وعلا، وهل يعقل قادر لا تقوم به القدرة ؟! أو حي لا تقوم به الحياة ؟! وقد قال صلى الله عليه وسلم (**أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر**) فهل يقول عاقل أن الرسول صلى الله عليه وسلم عاذ بمخلوق!؟ هل يقول إن الشرك يقع من النبي صلى الله عليه وسلم؟! حاشاه، بل هذا كقوله (**أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك**)، وكقوله (**أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر**)، وكقوله (**وأعوذ بعظمتك أن نغتال من تحتنا**)، كل هذه من صفات الله تعالى، وهذه المعاني مبسوطة في مواضعها، وإنما هذه إشارة.

---

[1] قال المحاضر: (الصفة لا تقوم بالموصوف) وأخبر الأستاذ بتدارس أنه سبق لسان من المحاضر

كثير من متأخري الحنفية على أن صفة الكلام هو معنى واحدا، والتعدد والتكثر والتجزي والتبعض في الحاصل؛ في الدلالات لا في المدلول، وهذه العبارات مخلوقة، وسميت كلام الله لدلالتها عليه وتأدّيه بها، فإن عبّر بالعربية فهو قرآن، وإن عبّر بالعبرية فهو توراة، فاختلفت العبارات لا الكلام، قالوا وتسمى هذه العبارات كلام الله مجازا، وهذا الكلام ظاهر الفساد فإن لازمه أن معنى قوله {وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا} هو معنى قوله {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ}،ومعنى آية الكرسي هو معنى آية الدين، ومعنى سورة الإخلاص هو معنى سورة {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَ}، وكل ما تأمل الإنسان هذا القول تبين له فساده وعلم أنه مخالف لكلام السلف.

والحق أن التوراة والإنجيل و الزبور والقرآن من كلام الله حقيقة، وكلام الله تعالى لا يتناهى، فإنه لم يزل يتكلم بما شاء، إذا شاء، كيف شاء، ولا يزال كذلك، يقول الله تعالى {قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا} ويقول الله تعالى {وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيم}

ولو كان ما في المصحف عبارة عن كلام الله وليس هو كلام الله لما حرم على الجنب والمحدث مسه، ولو كان ما يقرأه القارئ ليس كلام الله لما حرم على الجنب قراءة القرآن.

النقطة الثانية التي سنتحدث عنها في هذه الحلقة أن كلام الله سبحانه وتعالى محفوظ في الصدور مقروء بالألسنة مكتوب في المصاحف، كما قال أبو حنيفة رحمه الله في "الفقه الأكبر "وهو في هذه المواضع كلها حقيقة، وإذا قيل المكتوب في المصحف كلام الله فهم منه معنى صحيح حقيقي، وإذا قيل فيه خط فلان وكتابته فهم منه معنى صحيح حقيقي، وإذا قيل فيه مداد قد كتب به فهم منه معنى صحيح حقيقي، وإذا قيل المداد في المصحف كانت الظرفية فيه غير الظرفية المفهومة من قول القائل: فيه السموات والأرض وفيه محمد وعيسى ونحو ذلك، وهذان المعنيان مغايران لمعنى قول القائل: فيه خط فلان الكاتب، وهذه المعاني الثلاثة مغايرة لمعنى قول القائل: فيه كلام الله، ومن لم يتنبه للفروق بين هذه المعاني ضل ولم يهتد للصواب، وكذلك الفرق بين القراءة التي هي فعل القارئ، والمقروء الذي هو قول الباري، فمن لم يهتد له فهو ضال أيضا"

فلو أن إنسانا وجد في ورقة مكتوباً: ألا كل شيء ما خلا الله باطل، من خط كاتب معروف لقال هذا من كلام لبيد حقيقة، وهذا خط فلان حقيقة، وهذا كل شيء حقيقة، هذا حبر حقيقة، ولا تشتبه هذه الحقيقة بالأخرى، فهناك فرق بين قائل هذه المقولة وبين كاتبها وبين من خطها.

القرآن في المصدر في الأصل مصدر **فتارة يذكر ويراد به القراءة،** يقول الله تعالى {وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا} يقول الرسول صلى الله عليه وسلم (زينوا القرآن بأصواتكم).

وتارة **يذكر ويراد به المقروء** يقول الله تعالى {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيم} ويقول تعالى {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُون}، ويقول الرسول صلى الله عليه

وسلم (إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف) إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث الدالة على كل من المعنيين المذكورين، فالحقائق لها وجود عيني وذهني ولفظي ورسمي، ولكن الأعيان تعلم ثم تذكر ثم تكتب، فكتابتها في المصحف هي المرتبة الرابعة.

وأما الكلام فإنه ليس بينه وبين المصحف واسطة، بل هو الذي يكتب بلا واسطة ذهن ولا لسان، والفرق بين كونه في زبر الأولين وبين كونه في رق منشور أو في كتاب مكنون، واضح.

فقوله تعالى {وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ} **أي ذكره ووصفه والإخبار عنه،** كما أن محمدا مكتوب عندهم، إذ القرآن أنزله الله على محمد صلى الله عليه وسلم ولم ينزله على غيره أصلا، ولهذا قال "في الزبر" ولم يقل في الصحف ولا في الرق، لأن الزبر جمع زبور، والزبر هو الكتابة، والجمع قوله {وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ}أي مزبور الأولين، ففي نفس اللفظ واشتقاقه ما يبين المعنى المراد، ويبين كمال بيان القرآن وخلوصه من اللبس، وهذا مثل قوله تعالى {الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ} أي ذكره، بخلاف قوله تعالى{ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ} أو {لَوْحٍ مَحْفُوظٍ} أو {كِتَابٍ مَكْنُونٍ} ، لأن العامل في الظرف **إما أن يكون من الأفعال العامة** مثل: الكون والاستقرار والحصول ونحو ذلك، أو **يقدر مكتوب في كتاب، أو في رق، والكتاب تارة يذكر ويراد به محل الكتابة، وتارة يذكر ويراد به الكلام المكتوب،** ويجب التفريق بين كتابة الكلام في الكتاب وكتابة الأعيان الموجودة في الخارج فيه، فإن تلك إنما يكتب ذكرها، وكل ما تدبر الإنسان هذا المعنى وضح له الفرق.

الكتاب تارة يذكر ويراد به **محل الكتابة،** وتارة يذكر ويراد به **الكلام المكتوب،** ويجب التفريق بين كتابة الكلام في الكتاب، وكتابة الأعيان الموجودة في الخارج فيه فإنما تلك يكتب ذكرها وكل ما تدبر الإنسان هذا المعنى وضح له الفرق.

وحقيقة كلام الله تعالى الخارجية هي ما يسمع منه، أو من المبلِّغ عنه، فإذا سمعه السامع علمه وحفظه، فكلام الله مسموع له معلوم محفوظ، فإذا قاله السامع فهو مقروء له متلو، فإن كتبه فهو مكتوب له مرسوم، وهو على الحقيقة في هذه الوجوه كلها لا يصح نفيه، والمجاز يصح نفيه، فلا يجوز أن يقال ليس في المصاحف كلام الله، ولا ما قرأ القارئ كلام الله، وقد قال تعالى {وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ} وهو لا يسمع كلام الله من الله، وإنما يسمعه من مبلغه عن الله، والآية تدل على فساد قول من قال: إن المسموع عبارة عن كلام الله لا أنه كلام الله، فإنه تعالى قال: { حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ} ولم يقل حتى يسمع ما هو عبارة عن كلام الله، والأصل الحقيقة.

ومن قال: إن المكتوب في المصاحف عبارة عن كلام الله أو حكاية كلام الله وليس فيها كلام الله، فقد خالف الكتاب والسنة وسلف الأمة، وكفى بذلك ضلالا.

وكلام الطحاوي رحمه الله يرد قول من قال إنه معنى واحد لا يتصور سماعه منه، وأن المسموع المنزل المقروء المكتوب ليس كلام الله، وإنما هو عبارة عنه، فإن الطحاوي رحمه الله يقول : "**كلام الله منه**

بدأ"، وكذلك قال غيره من السلف، ويقولون منه بدأ وإليه يعود، وإنما **قالوا منه بدأ** لأن الجهمية من المعتزلة وغيرهم كانوا يقولون إنه خلق الكلام في محل فبدى الكلام من ذلك المحل، فقال السلف منه بدأ، أي هو المتكلم فمنه بدأ، لا من بعض المخلوقات كما قال تعالى {تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}، ويقول تعالى {وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي} وقال تعالى {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَق} ومعنى قوله: " وإليه يعود": أنه يرفع من الصدور والمصاحف فلا يبقى في الصدور منه آية ولا في المصاحف كما جاء ذلك في عدة آثار، كما أخرج **ابن ماجة وغيره**.